الفصل الثالث

النكوص و الارتداد الطفولي

آه كم أعدو صغيرا حلجتي لك كالطفل إلى رحمة أم

يبدأ هذا المبحث بفرضية مؤسسة على ما أشرنا إليه في المبحث السابق ، وهي أن حنين الشاعر إلى طفولته الأولى ، ونزوعه إلى الرموز الطفلية في تشبيهاته التشبيبيّة تمويه على حصر عاطفي ، وآلية دفاعية تزود الأنا بشيء من الخداع المؤقت هربا من إحباطات الحاضر وصراعاته وقد لاحظنا في أولى إجراءات هذا الفرض أن الانتماء العاطفي للشاعر انتماء الطفل إلى أمه ، وتعلقه بها كذلك تعلق الأطفال بأمهاتهم ، ففي داخله دائما رجل طفل ، أو طفل كبير ، أو ذات طفلية لم تتجاوز عتبات الطفولة ولم تصل به إلى المرحلة التي يعتمد على نفسه في تلبية حاجاته العاطفية وتأمينها ، فذاته تنطوي على طفولة ممتدة ليس فيها قدم صدق للمراحل الأخرى وقد يبدو مستغربا أن نصف رجلا بالطفولة الجامدة NLANTILISM ، ونقرر أنه عاش طفلا في ثياب رجل ، وظل حتى شيخوخته يحتفظ بمفرزات طفولته الأولى على عكس ما هو معروف من أن الشخص ما دام قد شب عن الطوق فلا بد أن يكون قد انسلخ من خصائصه الطفولية ، ولكن الذي نذهب إليه أنه لم يتخلص من ركام الذاكرة ولم يصل إلى المرحلة التي يمكن أن نسميها نساوة الطفولة AMNESIA ، والتي تفقد فيها الذاكرة أخيلتها الطفولية ، أو بالأحرى تتخلص منها ، ففضلاً عن اتكاليته وازدواجيته وعصبيته البينة ، وتمركزه حول ذاته وسرعة تأذيه ، ولجاجته في البكاء والتشكي فيه أيضاً من مفرزات هذه الطفولة خجله وتلعثمه ، وحبسته

التعبيرية ALOGIA ، وحصره الموضوعي OBJECTIVEREAL ، ونحو ذلك من الحيل الطفولية التي تشده إلى طفولته الأولى ، وكأنما يود أن ترجع عقارب الساعة إلى الوراء ليعود طفلاً ينعم بالأثرة ويتخذ من حبيبته أما تحمله بين ذراعيها وتضمه إلى صدرها ، وتجلس إلى فراشه، وتدرأ عنه موجسات الظلام والوحدة PHOBIAS ، وتلك ودادة يهرب إليها كل من يعاني فشلاً عاطفياً أو صدمة قوية أحبطته وسببت له قلقاً مستمراً ، لذا يخيل إليه أن الأمن والطمأنينة في النكوص REGRESSI إلى طفولته الأولى ، ويظل يختلق الأعذار تبريرا لهذا الفشل وليحمل الناس على الاعتقاد بأنه بائس ، أو منحوس ، أو سيئ الحظ ، وبذا يوهم نفسه قبل أن يوهمهم ، فتصبح هذه التبريرات حقيقية بعد أن كانت واهية كبيت العنكبوت[1] .

لكننا قبل أن نمضي في استجلاء هده الآلية نستخدم أولاً القياس الإحصائي لمعجمه الطفولي وسوف نلحظ أنه يدور حول معنى عام هو ارتداده الدائم إلى طفولته وما انطوت عليه من انطباع عاطفي كلما افتقد المودة أو استشعر الظماً و المسغبة :

عاودتني طفولتي فيك حتى خلت أني ما اجتزت يوم عذاب[2]
آه من يأخذ عمري كله ويعيد الطفل والجهل القديما[3]
وضحكنا ضحك طفلين معا وعدونا فسبقنا ظلنا[4]

---

(١) انظر ، حامد زهران ، السابق .
(٢) ديوانه / ٢٦٨ / قصيدة التذكار .
(٣) ديوانه /١٨١ / الوداع .
(٤) نفسه .

أرى الطـــريـــق بناظري رجل ... وأنـــا لهـــا طفـــل أضاحكهـــا[٥]

آه كـــم أعدو صغيرا حاجتـــي ... لـــك كـــالـطـفـــل رحمـــة[٦] أُم

كـنـــت تدعونـــي طفلاً كلمـــا ... ثـــار حبـــي وتنـــدت مقلـــي[٧]

ولـــك الحـــق لقد عاش الهوى ... فـــي طفـــلا ونمـــى لم يعقـــل[٨]

رمـــت الطفـــل فأدمت قـــلبه ... وأصابـت كـبريـــاء الرجـــل[٩]

وافرحتـــي بك فرحة الطفـل الذي ... يلهـــو ويخلق كل يـــوم عيـدا[١٠]

كـــأن طفـــلا خـــائـفـــا ... فـــي أضلعـــي حـــل الحبـــي[١١]

وكأننـــي طفل بهـــا وخواطري ... أرجـــوحة فـــي لجها المتلاطـــم[١٢]

كيـــف صدقـنـــا أضاليل الهوى ... بنهـــى طفـــل وإحساس صبـــي[١٣]

أقـــول وقـــد وسدته راحتـــي كما ... توســد طفل متعب راحـــة اليـد[١٤]

أغفـــيت في كنفي وفي ظل الكرى ... كالطفـــل فـــي أمن مـــن الأوجاع[١٥]

ربيـتـــه طفـــلا بذلـــت لـــه ... مـــا شـــاء من خفض ومن لين[١٦]

يـــا طفلـــي النواح أن اليـ ... ـوم أن تـــتـــعـــلـــمـــا[١٧]

---

(٥) ديوانه / ١٤٦ / لقاء في الليل .

(٦) ديوانه / ٩٣ / الخريف .

(٧) /٣٤٥ / الأطلال .

(٨) /٣٤٥ / الأطلال .

(٩) /٣٤٥ / الأطلال .

(١٠) ديوانه / ١٢٥ / فرحة جديدة .

(١١) ديوانه /٦٨ / الطائر .

(١٢) ديوانه / ١٠٦ / الفراق .

(١٣) ديوانه / ٣٦٦ / بقايا حلم .

(١٤) ديوانه / ١٣٩ / في الظلام .

(١٥) ديوانه /١٩٩ / دعاء الراعي .

(١٦) ديوانه / ٣٢٢ / الحنين .

(١٧) ديوانه / ٢٦١ / الصنم الجميل .

وأنـــت تجـــارب الأمـــس وأنـــت بـــراءة الطفـــل[١٨]

وأراك تعبث بي كطفل في السماء يصـــرف الأقـــدار كيف أرادا[١٩]

كـــم يسخـــر النجم من عـــل وكـــم يرانـــا الله أطفالا[٢٠]

ذلك الطفـــل اللهيـــف الغيور في فلك مـن ضوء ليل يدور[٢١]

أو يخلـــع الغيـــم ثـــم يبدو طفلا مصوغا مـــن الضياء[٢٢]

فكأن طفـــل الفجـــر نـــا م علـــى وسادة جـــدول[٢٣]

هدأت رسائـــل حبهـــا كالطفـــل فـــي أحلامها[٢٤]

أن كلمة تطرد على هذا النحو من اللجاجة يكون من العبث أن نلتمس لها تخريجا أدبياً كأن نشبه الحب بالطفولة "بجامع الطهر والبراءة ، وضرورة استمرار العناية به ، وأن كليهما ثمرة علاقة بين اثنين كما يذهب بعضهم[٢٥]، فهذا لا يصح إلا إذا صح أمران اقتصار الظاهرة على السياق الغزلي ، واطرادها عند أترابه الرومانسيين ، وليس هذا من الأمر في شيء فالشاعر ينفرد بهذا المعجم الطفولي دون الرومانسيين ، بل والعذريين أيضاً ، وهم وإياه في دعوى الروحانية سواء ، كما أنه لا يقصرها على تشبيهاته التشبيبية، ولكنه يخلعها على الطبيعة إذ يربط بين مظاهرها برباط الأمومة

---

(١٨) ديوانه / ٢٦٢ / صلاة الحب .

(١٩) ديوانه / ١٢٤ / آمال كاذبة .

(٢٠) ديوانه / ١٦٧ / الحياة .

(٢١) ديوانه / ٢٣١ / رباعيات .

(٢٢) ديوانه / ١٨٦ / أنا والقمر .

(٢٣) ديوانه / ٢٥٠ / سمراء المحفل .

(٢٤) ديوانه / ٢٦٢ / رسائل محترقة .

(٢٥) د / طه وادي ، نفسه ص ١٣٧ .

والطفولة ، وهو سلوك لا يصدر إلا عن ذات قلقة برمت بإحباطات الحاضر وصراعاته ، فنكصت به إلى طفولته الأولى ، لتتخذ منها آلية تدفع عنه غائلة القلق ، وتقيه مشاعر الإحباط ، ولهذا قلنا إن انتماءه العاطفي انتماء الطفل إلى أمه ، فهو يود دائما أن يحتل من حبيبته موقع الطفل ، ويظل محل رعايتها وموضع عطفها واهتمامها وأن يكون التعامل معه ((بنهى الطفل وإحساس وصبى)) ولهذا لا يكتفي بلفظ الطفولة وحروفها وبنيتها الصرفية ، ولكنه يذكر لوازمها ومرادفاتها ، كالصبا والولادة ، والصغر والرضاعة ، والفطام والحبو والتوسيد ، ونحو ذلك من الرموز التي تعكس لهفته على طفولته ، وما انطوت عليه من انطلاق ، واتكالية ، وهروب من التبعات ، ففي مدحه[٢٦] أو قدحة[٢٧] ، وفي رثائه[٢٨] وتوبته[٢٩] لا يجد أبلغ من الوصف بالغلام ، أو الصغير ، أو الرضيع ، أو العمر الجديد[٣٠] ، بل أن الكلمة تمثل هماً ضاغطاً ليس فقط على أدواته ، ولكن أيضاً على رؤيته الفنية ، فالفن عنده صنو الطفولة ، والأديب الصحيح ((طفل لم يكبر ،

---

(٢٦) يقول في مدح د / زكي مبارك :

فرح الأهل بالغلام الذي صار حديثا في ندوة السمار

في حمى سنتريس شب غلام شاعري الكلام والانظار

(٢٧) يقول :

ولقد تظفر بالخا ئب حظا وغراما

أسود اللمة يحـ سبه الناس غلاما

(٢٨) رقد الصغير إلى الكبير مجاورا وتعانقه الأحباب والأخصام . ديوانه /٢٨٣/ في رثاء الوكيل .

(٢٩) يارب غفرانك إنا صغار ندب في الدنيا دبيب الغرور . ديوانه /١٨٧/ الحياة .

(٣٠) ذهب العمر وذا العمر جديد عشته من فمك الحلو الرقيق . ديوانه /٢٠٨ /ساعة لقاء .

طفل له خصائص الطفل في فرحه بالأشياء ، وسذاجته وتهلله وضحكه وخيالـــــــه))[٣١] ، كتب مرة يقول : ((كل من رآني من إخواني يقول : أنت طفل كبير، وسنحت لي الفرصة لأستغل هذه الهيئة فتقدمت لمسابقة الطفولة ، ولكنني للأسف منعت من الاشتراك بحجة أنني طفل عجوز ، مع أن لدي من الأدلة ما يثبت أنني طفل ، ويجوز لي أن أتطفل على الطفولة ، فأنا أبدل أسناني الآن ، ووصف لي الأطباء الإكثار من شرب اللبن و الفيتامين المركز الذي يوصف للأطفال للين العظام ، وليس لي شعر ، وقد أخذ ينبت أخيراً ، وألبس مريلة في العيادة ، وأستطيع أن أضحك في أصعب الأوقات ، وأنا شاعر والشاعر دائما طفـــل كبيـــر ، فطمت من كل شيء إلا من صفتي الطبيعية ، وأطير في نفخة ، وتقلبني الريح رأساً على عقب إذا اشتدت قليلا ، فبناء عليه أطالب الاثنين بأن تشركني في مسابقة الطفولة سواء اعتبرت طفلا أم متطفلا))[٣٢] . وبالرغم من روح الدعابة التي تنطوي عليها مقالته تلك فهي تشير إلى أن الطفولة الجامدة سمة لصيقة بشخصيته يلحظها هو ، كما يلحظها كل من اتصل به من أصدقائه ، وحبائبه والمحيطين به .ولننتقل الآن من التقرير إلى التحليل :

البكاء والتشكي :

البكاء سمة لصيقة بشخصية ناجي وهو انفعاله الأول ، ودليل تأثره وتميزه ولذا يبكي من كل شيء ، وأي شيء ومن لا شيء ، ولا عجب في

---

(٣١) مجلة الرسالة ، العدد ٣٢٠ ، ص ١٩٤ ، ١٩٣٧ مقال للشاعر بعنوان (سيكلوجية الأديب) .

(٣٢) مقال بعنوان (طفل متطفل) مجلة الاثنين .

ذلك ، وإنما العجب آلا يكون كذلك ، فالبكاء داخل في لحمته وسداه نابع من طبيعته التي تحب وتتألم ، ويلذ لها الألم ، وتستمرئ الشكوى والبكاء وضراعة الأطفال حتى جعل ديوانه معرضاً للبكاء ولا تكاد تخلو منه قصيدة . ودونك مثلا :

وهـا أنا لا أداري عنك سـرا ... عرفت محبتي ورأيت دمعي[٣٣]

إن يكن ما كان دينا يقتضي ... خلتي أدفعه عنك دموعا[٣٤]

((أصبحت والدنيا وداع أحبة ... ودموع خلان وحزن رفاق

فصرخت من صرخاتهم وبكائهم ... لا دمع إلا الدمع في أحداقي))[٣٥]

حطمت من جبروتهن فقلن لي : ... أزف الفراق فقلت : ويحك هاتي[٣٦]

كلانا حزين فلا تجزعي ... ودمعك تسبقه أدمعي[٣٧]

هي أنت أنفس ... بالمقادير ترتطم[٣٨]

((هل أنت سلمعة أثيني ... يا منية القلب الحزين

إني نكرتك باكيا ... والأفق مغبر الجبين))[٣٩]

كل مضي صبابة آخذ ... تن فمن مدمع ومن حسرات[٤٠]

فلعلك أن سررت فلم نجدها ... فرشنا الدمع هتانا ثخينا[٤١]

---

(٣٣) ديوانه /١٩٧ / بعد الفراق .

(٣٤) ديوانه / ٩١ / الخريف .

(٣٥) ديوانه / ٣٥٤ / بقية القصة .

(٣٦) ديوانه / ١٠٦ / بعد الفراق .

(٣٧) ديوانه / ٢١٠ / كلانا ((من شعر الصبا)) .

(٣٨) ديوانه / ٢٧٩ / إلى روح طانيوس عبده .

(٣٩) ديوانه نفسه .

(٤٠) ديوانه / ٢٧٨ / التذكار .

(٤١) ديوانه / ٥ / حنين .

إذا آنـا لـم أبـذل شجاي وعبرتـي ... على كل وقت ضائع لـم أكن أبك[42]

كم صحت والعين تذري الدمع من أسف ... على الجواهر في كف الردى العادي[43]

((وحنينـي مـن عتـاب في فمـي ... قـد عصانـي فتـفجرت دموعـا

أن تـروا أدمعـي فـلا تزجروني ... ودعـونـي إنـي أحـب الدموعا

لا تخافـف أيديكـم أدمعـا تـنـ ... ـفـع قـلبـا لـم يـزل موجوعـا

أدمعـي ستـر مسبـل فوق ماض ... قـد تولـى فما يستطيع رجوعا))[44]

ولـو كـان عندي غير زفرة آسف ... وحسـرة أشـواق ودمعـة أقلام[45]

((أسفـي لغـلـي الدمع تبـ ... ـذلـه لمـرتـخـص الدمـى

تبكـي علـى العرش المصـو ... غ مـن المـدامـع والـدمـا

تبكـي علـى الصنـم الجميـ ... ـل يكـاد أن يـتـكلـمـا

تبكـي تـراب الأرض مصـ ... ـبوغـا بألـوان السمـا))[46]

يـا للقلوب لقصـة محزونـة ... لـم تـرو إلا روحـت ببكـاء[47]

وبكائـي علـى أمـل بـال ... وأحنـو علـى جريح موسد[48]

تركتنـي وحـدي وخلفـتـني ... أرزح تحت المبكيات الثـقـال[49]

أردنا بهذا الاستقصاء الإحصائي أن ندحض ما ذهب إليه بعضهم[50] من أن الشاعر ((لم يشأ لنفسه ، أن يكون بكاء حزينا ولا قاتما ، وأن البكـاء في

---

(٤٢) ديوانه / ٢٢٢ / شك .

(٤٣) ديوانه / ١٣٤ / في تعزية الأباظيين .

(٤٤) ديوانه / ٩١ / الخريف .

(٤٥) ديوانه / ٢٧٥ / مناجاة الهاجر .

(٤٦) ديوانه / ٢٦١ / الصنم الجميل .

(٤٧) ديوانه / ٤٧ / دين الأحياء .

(٤٨) ديوانه / ١٥١ / غيوم .

(٤٩) ديوانه / ٢٣١ / رباعيات .

(٥٠) د / علي محمد الفقي ، سابق ، ١٣٨ ، ١٢٨ .

شعره لا يتجاوز بيتين لا ينبغي أن نتصيدهما لنقيس عليهما كل شعره فنكون كمن ينظر من ثقب المفتاح ليحكم على العالم الذي يراه بأنه معروف لديه ، واقع تحت فكره وبصره)) ولعل ما يزيد هذا الرأي خطلاً أن صاحبه وقد برأ الشاعر من البكاء والحزن والقتامة نسى فقال في موضع آخر : ((وانطلق لايسيغ إلا البكاء والأنين))!! ثم زاد الطين بلة فألقى تبعة هذا البكاء على مهنة الطب بدعوى أنها(مهنة عقلية صرفة تميل إلى البحث والتحليل ، والنظر وتقيس الأمور بميزان الدقة ، والتعمق وتجعله يعيش مع مرضاه بحسه المرهف ، ويستمع إلى آلام الناس وشكواهم بعاطفته الجياشة)) .

ولا شك أن هذا التعليل بلغ من التناقض حد الخطل ، فقد جعله في آن واحد عاقلا ذا عاطفة جياشة مع أنه وصفه في موضع آخر ((بالقتامة والسوداوية والإنطوائية)) !! فكيف للعاطفة الجياشة التي لا يلجمها عقل أن تعمل العقل ، أو تقيس الأمور بميزان الدقة ؟! وكيف للسوداوي -وهو الحزين المكتئب المنسحب دائماً إلى ذاته ـ أن يتكلف الحزن والبكاء ، اللهم إلا إذا كانت سوداويته أيضا انعكاسا لمهنته الطبية .!! بل ان الباحث ذاته الذى يفسر البكاء وهو انفعال طبيعى بانعكاسات المهنه الطبية ، وهى شيىء مكتسب ينسي أن البكاء سمة لصيقة بنفس الشاعر، قبل هذا التخصص الطبي الذي جاءه قدرا لا خيرة له فيه وظل بسببه يستشعر الغبن ، باخعا نفسه على آثاره منذ وجه إليه لأنه يتناقض مع طبيعته الخيالية : كما يقول ((ما أظلم القدر حين أراد أن أكون طبيبا ، وما بالطب من حرج ، ولكن الحرج أن يكون الخيال مركباً في طبيعة شخص ، فيكلفه القدر ضد طباعه))(٥١) .

---

(٥١) مجلة نقابة الأطباء ٩ / ٧ / ١٩٥١ .

وان تعجب فعجب أن الباحث ذاته الذي نكص على عقبيه وعلل بكاء الشاعر بمهنته الطبية ، يرجع أيضا إلى هذه المهنة أدواته الفنية ورؤيته الحياة والأحياء فيقرر أنه : ((كان ينظر إلى الدنيا نظرة العاقل الحكيم فهو مدقق أحيانا ، بالغ الروعة في دقته ، يحلل القبلة وسرها ، ويفتن في إظهار ما تخفيه أو تذيعه)) :

إذا كنت في شك سلي القبلة التي ... أذاعت من الأسرار كل دفين
مناجاة أشواق وتجديد موثق ... وتبديد أوهام وفض ظنون
وشكوى جوى قاس وسقم مبرح ... وتسهيد أجفان وصبر سنين

فعلى رأيه أن ((الشاعر هنا يشرح أثر القبلة على المحب الولهان الذي التقى بحبيبته بعد طول غياب ،وتجمعت مشاعره ، وضج الهوى في آفاق جسمه ، وتجمع الشوق فصار قبلة تجسم الإحساس في معنى إنه خيال شاعر محلل مدقق ، مفتن مبدع ، ولقد اكتسب هذه الخاصية من ميدان العمل الذي اختاره لنفسه وهو مهنة الطب))[٥٢] .

والواقع أن مثل هذه الدروشة البحثية قد جهلت النص وزادته غطاء على غطاء ، إذ ما أبعد هذه الأبيات عن العقل والرشد والحكمة البالغة ، التي يؤكدها هذا الباحث وينفيها الشاعر نفسه إذ يقرر في غير موضع أن ((الحجا سمه وتدميره ، وأن الهوى عاش فيه طفلا ونما لم يعقل ، ولم يبق فيه من رشد ، وأن في سلوكه ما ينطوي على نهى طفل وإحساس صبي))[٥٣] وفضلا عن هذا كله فالأبيات تنطوي على سذاجة الطفولة ، واندفاعيتها ،

---

(٥٢) نفسه ، ص

(٥٣) ديوانه / ٢٦٧ ، ٣٤٣ ، ١٤٠ /

التي لاتماري ولا تداري ، ولا تجد مسكة من العقل أو الدقة أو الاتزان العاطفي فهو هنا كالأطفال في تعلقهم بأمهاتهم إذا أعطوا منها رضوا ، وإذا لم يعطوا إذ هم يسخطون حتى أن قبلة تطبعها على خده تفجر مواجعه ، وتخرج الخبأ في مواجده القديمة التي تراكمت فانفجرت ففاضت بعد كتمانها سنين عددا كما تقول بداية النص :

ولما التقينا بعد نأي وغربة شجيين فاضا من أسى وحنين
تسألني عيناك عن سالف الهوى بقلبي وتستقصي قديم ديوني
فقمت وقد ضج الهوى في جوانحي وأن من الكتمان آي أنين
يبث فمي سر الهوى لمقبل أجود له بالروح غير ضنين[٥٤]

الفيتشية Fetishism :

المازوكي شخص منكمش حول ذاته ، يعيش في سديم الجوع العاطفي يظل ،يحن إلى الجسد ويلج في حنينه ((أعطني حريتي أطلق يدي)) ويحلم ((بأنوثة مجنونة الطغيان ، أنوثة جسدت في نهد وفي ساق)) ويظل يفكر ويقدر ، وينتقي الكلمات التي سوف يقولها في موعد مرتقب ، ويعد الثواني ((وهى جمرات في دمه)) و((يذم هذا الوقت في بطئه)) ((ويود لو يختصر العمر اختصاراً[٥٥] حتى إذا دنا الموعد والغرفة وكر للمواعيد ، وجاءت ربة الحسن[٥٦])) وغلقت الأبواب وقالت : هيت لك استعصم لا

---

(٥٤) ديوانه / / .
(٥٥) ديوانه /٣٤٣ ، ٣١٧ ، ١٣٧ ، ٣٤٤ ، ٢٦٧ /
(٥٦) ديوانه /١٣٧/ .

((تطهرا أو تعففا)) كما يقول ولكن تلعثما وخجلا[٥٧] فإذا الخوف يعصف به فيخمد ثورته ليتحول إلى جبل من الثلـــــج ذلك ((اللهب الذي كان يلفح وجه بأنفاس البراكين)) ثم تتضاءل نفسه ، فيضيق صدره ولا ينطلق لسانه. وإذا هو مهين ولا يكاد يبين ،حتى إذا انتهى الموعد وأفلت الصيد انفتحت شهيته ،وجن به الهوى وفاضت عيناه من الدمع حزنا ألا يجد ما يبل أوامه أو يشفي غليله غير آثار هذه الحبيبة . منديلها . صورتها . حذائها . مقعدها. ثوبها . مشطها . خصلة من شعرها أو نحو ذلك من أشيائها الخاصة وآثارها الجسدية لأن إحساسه الغريزي لا يوقظه إلا تلك الآثار التي تكون كعود ثقاب يقدح زناده العاطفي ويخمده أيضا ، لهذا فهو ، يجل هذه الآثار ويقدسها، ويسمو بألقها الجسدي على الجسد ذاته ، ويقدرها ((بملك الدهر)) بل يفتديها ((بنور عينيه)) ونفسه التي بين جنبيه ويلقاها بالسجود ، شكرا لها على أن جلت حالته فأطعمته من جوع وآمنته من خوف ولهذا لا يذكرها إلا مقترنة بالشبع العاطفي أو الظمأ والمسغبة ودونك مثلاً قصيدة الصورة :

رسم الحبيب الأول ... دعني لحسنك أجتلي
بنواظر مقروحة ... بالنوم لم تتكحل
دعها تعب سنا ... ك فهي شقية لم تنهل
إني أغار من الظلا ... م وأنتما في معزل
وأقول كن بين الضلو ... ع وفي الجوانح فانزل
فهناك قلب لم يخن ... عهدا ولم يتبدل
يلقى ضياءك بالسجو ... د كعابد في هيكل[٥٨]

---

(٥٧) انظر ص

(٥٨) ديوانه / ٢٤٤ / الصورة .

عاطفة(شقية) ظامئة تود لو ((تعل وتنهل)) فلا تجد إلا الصورة ((تعبها)) وتطفئ بها حريقها الجسدي ،فإذا لم تروه الصورة ، ولم ترطب لجاجته العاطفية نكص إلى اثر آخر أكثر لصوقاً بجسد الحبيبة مثل ((شعرة اختطفها)) أو بالأحرى سرقها ((وخبأها في مكان ليس في بال)) إذا جن به الهوى أخرجها ، وراح يتحسسها ، ويتشممها :

وشعرة خطفتها ... كأنني قطفتها
ملكت ملك الدهر ... وحدي حينما ملكتها
إذا الرياح نازعت ... ني أمرها ضممتها
بقبضتي خاتفا ... إذا اعتدت روضتها
وفي مكان ليس في ... بال جرى خبأتها
خبأتها حتى إذا ... جن الهوى رأيتها
حبستها قرب عيو ... ني إن أشأ نظرتها
كأنما في بصري ... ومقلتي أخفيتها
هذي لذي صورة ... من حالتي جلوتها[٥٩]

لاشك أن التعلق بالشعرة المخطوفة ، وتقديرها بملك الدهر ، ونور عينيه ، ونفسه كما يقول : ((بنفسي هذا الشعر والخصل التي تهادت))[٦٠] ، والمبالغة في تقديرها إلى الحد الذي يثير دهشته فيتساءل عن أثرها العجيب ((ما الذي في خصلة من شعره أثر في))[٦١] ، هذا التعلق هو في منطق العقل الواعي تعلق بشيء تافه Kleptomania ، ولكنه ((صورة تجلو حالته)) ففصاحته نفسية ، وبلاغته نفسية كذلك يبحث عن معناه في

---

(٥٩) ديوانه / ١١٢ / شعرة .
(٦٠) ديوانه / ١٤٠ / فى الظلام .
(٦١) ديوانه / ٩٥ / الخريف .

باطنه ، نعني أن هذه الشعرة أثر من المرأة تلك القوة المطلقة التي أذلته دون كل القوى[٦٢] حتى الدهر والقدر ـ فإذا ملكها فقد ملك القوة التي تذل الدهر وتحكم القدر فبرضائها يرضى الدهر ((والدهر إما رضيت عبدي)) ويستقيم القدر لأنه ـ القدر ـ صنيعة هذه الخصلة ((قدر ينسج من خصلة شعر[٦٣])) إنها بعبارة أخرى أثر من آثار ((مرتخص الدمى / آلهة الهوى)) ذلك الوثن الذي ((رفعه على عرش من دمه ودموعه)) وخر له ساجدا ، وقرح أجفانه في عبادته ، فأذاقه لباس الخوف والجوع ، وجرعه ((الشجن القتال والظمأ المردي)) ((وحنى رأســـــه دون كل القوى)) فلا عجب أن تكون شعرة من مرتخص الدمى أحب إليه من نفسه وماله والدنيا كلها ، إذ ليست مجرد شعرة عادية ، ولكنها ذات حكاية قديمة منقوشة على جدران طفولته الأولى ، تحكي تعلقه ((بخادمته الجميلة المهذبة))[٦٤] التي منحته الحب والحنان ، وكانت كعبة أمله الخفي ، وقبلة حبه الدفين ، تسقيه من مورد خلف الظنون خفي[٦٥] وليس ببعيد أن يكون قد اعتراه إزاء هذه الخادمة تثبيت عاطفي من رؤيتها مكشوفة الشعر ، ثم صارت رؤيته أي شعر من تلك الطبقات الدنيا تطلق هياجه العاطفي وتذكره بهذا الانطباع الوجداني الأول . فتعلقه إذن ليس بشعر المرأة ـ أي امرأة ـ وهو على رأسها ((تسويه بيد الفتنة)) مثل تربه الرومانسي الأبوللي علي محمود طه[٦٦] ، أو((مستشزرات إلى العلا ما بين

---

(٦٢) ديوانه / ٣٤٣ / الأطلال .

(٦٣) ديوانه / ٩٣ / الخريف .

(٦٤) د/ علي محمد الفقي ، نفسه ص ١٩ .

(٦٥) ديوانه /١٦٩ / المساء .

(٦٦) ديوانه / ١٩ / .

مثنى ومرسل)) كما يقول القدماء[٦٧] ولكن من رؤيته خصلة شعر يخطفها ، ويخبئها في مكان غير ذي بال ، إذا جن الهوى أخرجها وتحسسها . فالمسألة بالنسبة له مسألة خطف وإخفاء وليست مجرد رؤية أنها صدى الماضي البعيد ، وصوت الانطباع العاطفي الأول ، يرن في أذن كل طفل تتشغل أمه بشؤونها الخاصة ، وتتركه بين يدي خادمته ، فيظل وجدانه مثبتا على هذه الخادمة ، أو على اثر من آثارها ، ويظل حتى شيخوخته يتذكر الدرس العاطفي الأول الذي تلقاه في طفولته ، ويظل أبدا يحن إلى هذه التجربة الأولى[٦٨] ولا يفتأ صداها يرن في أذنيه مهما قدم به العهد ، وانطوت عليها الطوايا ، وليس أدل على هذا من أنه بالرغم من مركزه الاجتماعي ، وزواجه من ((فاضلة من فضليات النساء))[٦٩] هادئة الطبع راقية المنبت ، وهي بنت أمين العاصمة في ذلك الوقت ، إلا أنه قضى عمره كله يشكو الظمأ والمسغبة ، ويهيم بالطبقة الدنيا من الممثلات اللائي يسميهن ((مرتخص الدمى)) وبخاصة الخاطئات اللائي شغفنه حبا ، وأشربن في قلبه إلى حد التوثين ، وشلل الإرادة ، حتى جعل شعره رواية غرام متصلة حول كل ممثلة يبدأ اسمها بحرف الزاي ، ويرمز إليها غالبا باسم ((زازا)) ولا يألوها حبا بالرغم من أن البدائل حوله ((عدد الرمل قلوبا ونساء)) كما يقول .

---

(٦٧) امرؤ القيس ، ديوانه .

(٦٨) د/ عصام سليمان ، العقد النفسية ، القاهرة ، مطبعة الفكرة .

(٦٩) د/ أحمد هيكل ، دراسات أدبية ص ١٦١ ، القاهرة ، المعارف ط ١٩٨٠ م .

ولا يكفي تعليلا لهذا أنه ((أحب في أول عهده بالشباب ، ولكن فتاة أحلامه رفضته))[٧٠] ، فعاش بالرغم من زواجه يحس بالتمزق بين زوج يعاشرها ولا يحبها ، وحب ينشده ويعجز عن تحقيقه[٧١] . فهذا التعليل يجهل الظاهرة ، ويعيد التساؤل مرة أخرى : لماذا أشربت تلك الطبقة في قلبه فشغفته دون الطبقات العليا ، مع علمه أنها ((مرتخص الدمى)) ؟ كما أنه من الخطل تعليل هذه الظاهرة بأن ((عصره كان حافلا بالرزايا والآثام مليئا بالعلل والأسقام ... فانصرف ناجي يصرخ في واد من الظلمات ، وفي بحر زاخر بالجوع العاطفي ، والظمأ النفسي ، يبحث عن عالمه هو ، ويلتمس له طريقا نحو النور))[٧٢] إننا حين نحمل العصر تبعة هذا النزوع نزيد شخصية الشاعر غطاء على غطاء ، ونعيد التساؤل مرة أخرى لماذا انفرد بتوثين ((مرتخص الدمى)) دون شعراء عصره ؟! إنها الحبة الأولى التي انغرست في أرض الطفولة أصبحت شجرة تضرب بجذورها وتؤتي أُكلها كل حين. فإذا رجعت الى طفولته وجدت أنه نشأ في أسرة محافظة ، وبين يدي جارية ذات شخصية نفاذة ، أضفت عليه من حنانها ما جعلها مثابة لوجدانه ، إذا ما أخطأ وتوجس العقاب ، ومن هنا ظل يحرص على رضاها فإذا غضبت ألفى القوم كلهم غضابا كما يقول في أولى غزلياته :

هل أنت سامعة أنيني ... يا منية القلب الحزين
يا قبلة القلب الخفي ... وكعبة الأمل الدفين
إني ذكرتك باكيا ... والأفق مغبر الجبين

---

(٧٠) د/ أحمد هيكل ، نفسه .

(٧١) نفسه .

(٧٢) د / علي محمد الفقي ، نفسه .

والشـــمـــس تـبـدو وهـي تغـ ... رب شبـــه دامعـــة العـيون
أمســيـــت أرقبهـــا علـــى ... صـــخـــر ومـــوج البحر دوني
والبحـــر مجنـــون العبـــا ... ب يهـيـــج ثائـــرة جنونـــي
ورضـــاك أنـــت وقايتـــي ... فـــإذا غضبت فمن يقيني[٧٣]

واضح أن العاشق هنا طفل يخطئ أو يقصر في واجباته فيئن متوجسا من العقاب ولا يجد من يقيه سوى ((منية القلب الحزين)) التي كانت تجربته الأولى ((تظل تسقيه و يسقيها من مورد خلف الظنون خفي)) وليس ببعيد أن تكون هذه التجربة هي المسؤولة عن تعلقه ((بمرتخص الدمى)) على هذا النحو من الوله والتثبيت العاطفي الذي جعل عمره كله رهن حبها كما يقول[٧٤] .

وكما هو مقرر نفسيا فالتجربة الأولى يظل الشخص متعلقا بها إلى الأبد ، حيث تضيق ساحة الحب وكثيرا ما يكون اضطرابه نتيجة لهذه الصدمة الأولى ، فبينما هو يعيش مع زوجه ، إذ يجد في تخيلات هذه الصدمة ما يملأ أحلامه ، وهذا النوع من المرضى يكون تفكيرهم مركزا على الحادثة الطفلية الأولى التي يكون لها صفة القوة القاهرة[٧٥] حتى كان من مواطن الملاحظة أن هذه التجربة بالرغم من قدم عهده بها ظلت حية في ذاكرته لم يستطع التخلص من ركامها ، فما يبرح يزايله هذا الخيال الذي عرفه في صباه ، وما يزال يسترجعه ، ويستسقيه ويبكي بين يديه ثم لا يلبث أن يفيق على سراب بقيعة إذا جاء لم يجده شيئا ، وعلىهذا فإن حنينه إلى خيال صباه

---

(٧٣) ديوانه / / على البحر .

(٧٤) انظر ص

(٧٥) د . عصام محمد سليمان ، العقد النفسية .

وارتداده إليه يمثل نقطة محورية في معجمه الشعري فلا يبرحها حتى يعود إليها متلهفا متحسرا على هذا النحو المطرد الذي لا تكاد تخلو منه قصيدة :

كم مرة يا حبيبي ... والليل يغشى البرايا
أهيم وحدي وما ... في الظلام شاك سوايا
أصير الدمع لحنا ... وأجعل الشعر نايا
وهل يلبي حطام ... أشعلته في جوايا
النار توغل فيه ... والريح تذرو البقايا
ما أتعس الناي بين ... المنى والمنايا
يشدو ويشدو حزينا ... مرجعا شكوايا
مستعطفا من طوينا ... على هواه الطوايا
حتى يلوح خيال ... عرفته في صبايا
يدنو إلى وتدنو ... من ثغره شفتايا
فرحت أصغي وأصغي ... لم ألف إلا صدايا[٧٦]
ولكم أبيت على السآمة طاويا ... في خاطري شبحا له عوادا[٧٧]
نقل في الأيام أقدامه ... يبغي خيالا ماثلا في مناه[٧٨]
أين الحبيب المفدى ... بين الصبا والدلال[٧٩]
يا من مضيت خلال أنات الصبا ... وذهبت بين تناوح الأدواح[٨٠]
أي الحظوظ أعادها لو فيها ... ونجى وحدتها وإلف صباها[٨١]

فإلف صباه الذى ((مضى خلال أنات الصبا وطوى عليه الطوايا)) ما يزال في خاطره ((شبحا عوادا ماثلا في مناه)) ، وما فتئ يبغيه ويحن إليه ويفتديه حتى وإن أعلن أنه سلاه وتنكر له وطوى صفحته .

---

(٧٦) ديوانه / ٣٤٨ / لناي المحترق .
(٧٧) ديوانه / ١٢٤ / آمال كاذبة .
(٧٨) ديوانه / ١٤١ / أنوار .
(٧٩) المجهولة / ١٤١ / السآمة .
(٨٠) ديوانه / ١١٥ / وداع المريض .
(٨١) ديوانه / ٣٣٣ / رجوع الغريب .

الثنائية الوجدانية . Affective ambivalence :

الوضع الأمثل للشخصية أن يكون مثلثها متساوي الأضلاع بين العقل والعاطفة والأداء فإذا طغى أحد هذه الأضلاع فإن الشخصية تفقد اتزانها وتكاملها[٨٢] . وسنعرض الآن مفرزة عصابية وثيقة الصلة بهذا المعنى وهي الثنائية ، فالسمة البارزة في شخصية الشاعر هي تفكك هذه الثلاثية ، أو بالأحرى تضخم الوجدان على حساب العقل ، فوقدة إحساسه هي آفته الكبرى وانحسار ((الحجا سمه وتدميره))[٨٣] ونفسه كعين ثرة ((شتى الميول سحيقة الأغـــــوار))[٨٤] من هنا تناقضت ميوله تجاه الشخص الواحد ، والموضوع الواحد فهو يريد ولا يريد ، يحب ولا يحب ، كما يؤكد الرغبة ونقيضها ، إنه بالأحرى لا سلطان له على حصائد لسانه لأنها مرتبطة بوجداناته ، وهذه كالأجنة في بطون أمهاتها تحملها كرها وتضعها كرها، دون أن تحدد سلفا نوعها أو لونها أو ساعة حملها وفصالها إلا إذا أجاءها المخاض إلى الصراخ فكان ذلك نذيرا بالوضع ، وبشيرا بالنوع ، وتأريخا لساعة الميلاد .

هذه الثنائية تبدو أقوم قيلاً في معادلته الصعبة التي جعلت ((مرتخص الدمى /آلهة الهوى)) نعنى تلك المرأة التي أحبها وافتداها ولذ له فيها الألم ، فحنت رأسه وسامته سوء العذاب ، ثم نسيته وطوت صفحته ، فإذا أخذته العزة فأعلن هو الآخر أنه نسيها وطوى صفحتها :

قـــد سلانـــي فتنكرت له وطوى صفحة قلبي فطويته[٨٥]

---

(٨٢) د . يوسف ميخائيل أسعد . نفسه ص ٣٣ .

(٨٣) انظر ص .

(٨٤) ديوانه / ١٦٥ / رثاء شوقي .

(٨٥) ديوانه / ٤٣ / كبرياء .

فهذا الموقف المعلن يمثل فقط أحد طرفي المعادلة ((أسلوك/ لست أسلوك)) و هيهات أن ينسى أو يطوى أو يعاملها بالمثل فهو يقول بلسانه ما ليس في قلبه ، إذ ما لبث أن نكص عن هذا الموقف المعلن وأبدى توبة مشفوعة بالندم ، والتوسل ، واتخاذ الشفعاء ، واللجاجة في البكاء والتشكي والاعتذار ، فتبدو دعوى النسيان مشفوعة بركام الذاكرة هما ضاغطا على وجدانه ، ومعادلة تطرد في معجمه قوامها : أسلوك/ لست أسلوك :

((قلت أسلوك وكم من طغة ... بالمداراة وبالوقت تهون
فإذا حبك يطغي مزبدا ... كدفوق السيل طغيان الجنون))[٨٦]
((لست أنساك وقد أغريتني ... بالنذرا الشم فأدمنت الطموح
لست أنساك وقد أغريتني ... بفم عذب المناجاة رقيق
لست أنساك وقد علمتني ... كيف يحيا رجل فوق الحياة
لست أنسى أبدا ... ساعة في العمر))[٨٧]
أحاول أن أنسى وهيهات إنه ... لحب يظل العمر يزداد توثيقا[٨٨]
هيهات أنسى درة الأنجم ... إلى من آفاقها ترتمي[٨٩]
هيهات أنسى أنهم عبثوا ... ووفيت لم أعبث بميثاق[٩٠]
أحاول سلوة وأرى الليالي ... بغير هواك لي هيهات تسلي[٩١]
تمضي كما مضت الليالي قبلها ... لا أنت ذاكرة ولا أنا ناسي[٩٢]

---

(٨٦) ديوانه / ٧٠ / ظلام .
(٨٧) ديوانه / ٣٤٣ / الأطلال .
(٨٨) ديوانه /٧ / الموسيقى .
(٨٩) ديوانه / ٢٢٧ / رباعيات .
(٩٠) ديوانه / ٢١٣ /
(٩١) ديوانه / ٢٥٥ / من لي .
(٩٢) ديوانه / ٢٧٥ / مناجاة الهاجر .

أيا بلد التناســـي كيف أنســى ... زمانـــي فيـك كهلا أو غلامـــا[٩٣]

إلـــى بالله أنسى ما جنى زمني ... .[٩٤]

أعيذك أن تنسى ومن مات ناسيا ... هـــواه فأحـــرى بالنهـى عقم الفكر[٩٥]

يـــا أيهـــا الليـــل جئت أبكـــي ... وجئـــت أسلـــو وجئت أنســى[٩٦]

ســـوف ينســـى الـقلب إلا ساعة ... من رضا في وكرك الحاني قضاها[٩٧]

فألـفينـــا لديكـــم ألـــف عيـــد ... تـنسينـــا الأحبـــة والديـــارا[٩٨]

((هـــذه دارهـــا فلا تدعانـــي ... آه يـــا صاحبـــي ممـــا عرانـــي

أتـــقـــولان قـــد تسليت عنهـــا ... وسئمـــت الدمـــوع مـــن أجفانـــي

فلـــم الرجفـــة التـــي في دمائي ... ولـــم الرعـــدة التـــي فـــي كياني

وانفـــــاق الحياة واضحـــك الأ ... يام منـــــي واكذبة السلوان))[٩٩]

مهلا نديمي كيف ينسى حبهـــا ... من ينشد السلوى علـــى ذكراها[١٠٠]

وأنا أقتات مـــن وهـــم عفـــا ... وأوفـــى العمر لناس ما وفى[١٠١]

وليس يبلـــى نهار هواك مضى ... هيهات ينسيه إصباح وإمســـاء[١٠٢]

وكـــم نسينا وكـــم محونا ... وكـــم غفرنا لمـــن أساء[١٠٣]

---

(٩٣) المجهولة / ١٦٧ / صخرة المكس .

(٩٤) ديوانه .

(٩٥) ديوانه / ١٧٥ / رحلة .

(٩٦) ديوانه / ٢٩٣ /

(٩٧) ديوانه / ٣٣٢ / إلى س (زينب صدقي) .

(٩٨) المجهولة / ١٤٩ / تحية مصر لفلسطين .

(٩٩) ديوانه / ٢٣١ / إليها .

(١٠٠) ديوانه / ١٧٣ / الكاس .

(١٠١) ديوانه / ٣٤٣ / الأطلال .

(١٠٢) ديوانه / ٥٩ / السراب .

(١٠٣) المجهولة / ١٨٦ / أنا القمر .

((أيهـــا الماضي الذي أودعته حفـــرة قـــــد خيم الموت بها
أيهـــا الشعـــر الذي كفنته مقسمـــاً لا قلـــت شعرا بعدها
أيهـــا القلـــب الذي مزقته صارخـــا : عهدك يا قلب انتهـــى
آه لو قام رسول ضـــــارع أو شفيـــع منكـــم يمضـــي لها
آه من يخبرها عن طائـــــر نســـى الأوكار إلا وكرها))[١٠٤]

أردنا بهذا الاستقصاء الإحصائي أن نبين خطل ما ذهب إليه بعضهم من أن الشاعر كان أحادي العاطفة ، حرا يتعامل بوجه واضح لا يعرف الازدواجية ، فلا يلبث أن ينسى من نسيه ، أو خان عهده ، وطوى صفحته أو كما يقول :

قـــد سلاني فتـنكرت لـــه وطوى صفحة قلبي فطويت[١٠٥]

ولعله قد أفصح الصبح لذى عينين ان ((الذكرى الدائمة)) هم لصيق بتراكيبه ، ومفردة بارزة في معجمه الشعري حتى وإن أعلن أنه نسيها وطوى صفحتها ذلك أنه شديد التأذي ، سريع الرد والتعقيب ، يصدر عن منعكس الفعل على ما تنطوي عليه فاء التعقيب من معنى الانعكاسية والمباشرة ، دون التراخي أو التريث : ((سلاني فتنكرت . طوت فطويت)) فإذا ما صرعه الانهجار ، واستبد به الظمأ والمسغبة ، وفاضت عيناه من الدمع حزنا ألا يجد ما يقيم أوده أو يشفي غلته ، نكص على عقبيه ونسى ما كان أعلنه من مقابلة النسيان بمثله ((فقطع إبهام الندم)) ولج في اعتذاراته وانفجرت مواجده مشفوعة بتبريراته : ((لست أنساك

---

(١٠٤) ديوانه / ٢٣١ / إليها .

(١٠٥) هو د . أحمد السامرائي (اتجاهات الشعر الحديث في مصر ص ٨) .

وقد ... لست أنسى أبدا .. هيهات أنسى .. أحاول سلوة .. نسيت الأوكار إلا وكرها)) فهو يفكر بوجدانه لا بعقله ، ولذا يأتي بالشيء ونقيضه ، دون أن يدري ، أو يلتفت إلى تناقضه ولذا تمثل هذه الثنائية قوامه الفني ، وتدخل في لحمته وسداه ، لأنها تصدر أصلا عن نفس ((شتى الميول سحيقة الأغوار)) لا تعرف الأحادية أو الثبات وإنما تنتقل من انفعال إلى نقيضه تبعا للطلبة العارضة والحاجة الموقوتة ، تؤلمه الكلمة ، وتؤرقه النظرة ويتعامل مع الحياة والأحياء بأعصاب عارية ، ولهذا يبدو في مظهره الخارجي هادئا طيعا ، بل واجما صامتا منقطع الصلة عن الواقع، كما يقول[١٠٦] ولكنه من الباطن مرجل يغلي ويفور كما تفور القدور ، ولذا ترى العجب العجاب من انفعالاته وحركاته ، فإذا بهذا الهادئ الرزين يثور لأتفه الأسباب ، وإذا به أضحى عاجزا عن كبح انفعالاته ، فيصرخ ويهب يقظا من صمته ووجومه ، ((والويل إن وثب الوسنان يقظانا))[١٠٧] إنه كما يصفه أحد أصدقائه ((شخصية غريبة تستهوي كل من اتصل بها ...شخصية كثيرة الشرود والإغضاء ، أسعد ما تكون بالصمت والتأمل والصفاء ، تلتقي بالدكتور ناجي فتشعر وكأن نسيما يهب عليك ، وتصافحه فكأنما يفتح صدره لك ، وتجلس إليه كأنك في حضرة روح حائرة ، وتستمع لحديثه فيأخذك العجب من طهارة قلبه ، وبراءة نفسه ، وسلامة طويته ، وعذوبة صوته ، وطلاقة محياه ... يمشي وكأنه يتعثر ، يصمت وكأنه غير موجود ، يقبع في ركن من القهوة وغليونه في فمه وكأن سنة من النوم قد استغرقته ، ثم يتكلم بغتة ويفيض ولايفتأ يتحرك ويتلفت ويلوح بذراعيه تلويحا عصبيا متداركا ،

---

(١٠٦) ديوانه / ٣٤٣ / الأطلال .

(١٠٧) ديوانه / ٣٠٤ / في تكريم عزيز اباظة .

فتحس لفورك رحابة نفسه واضطرابها وضيقها بما تحمل ، وتسمعه يجادل ويحتد ، وصوته أبدا صريح ، وجبينه أبدا منبسط ، والابتسامة الرقيقة لا تفارق شفتيه ، وعينه الحالمة أصفى ما تكون محبة وعطفا ، فيخطر لك أن تداعبه بنكتة طريفة وسرعان ما يتبدل ويستضيء وجهه ويتألق وتشع فيه نضارة معبودة ، كنضارة الأطفال فيأخذ في إرسال النكتة تلو النكتة))[١٠٨] .

كما تبدو هذه الثنائية في خصوماته ومغاضباته ومعاركه الأدبية ، ودونك مثلا قصة اعتزاله الشعر التي أعقبت صدور مجموعته الأولى وراء الغمام سنة ١٩٣٦م ، فالقصة في منطق العقل حزن مما لا يستدعي الحزن لأنه طبيب والطب مهنة تشبع حاجاته إذا ما أغلقت دونه أبواب الأدب ، أو رصدته عين النقد ، ولكن ما إن نقده العقاد وطه حسين حتى ترك الشعر ، بل ودعه ونعاه إلى الأبد : ((وداعا أيها الشعر ، وداعا أيها الفن ، ودمعة مرة وابتسامة أمر[١٠٩])) ثم قاطع كلا من علي محمود طه وعبد الحميد الديب وما نقم منهما إلا أن أحدهما مقدم عليه ، والآخر له رأي الصاحبين ، فرأى ذلك غبنا له ، وجناية على شعره وشاعريته ، وراح يقذف بالكلمات شأن الثائر لا شأن المناقش فوصف أحدهما بالقاتل السفاك وراح يدعو عليه بالموت الذؤام :

أيهـا الحـي وما ضر الـ ـورى لـو كنت متـا
أي شعـر ذاك بـل حـجـر ينحـت نحتـا
تلقـم النـاس وترميهـم بـه فـوقـا وتحتـا

---

(١٠٨) إبراهيم المصري ، صوت الجبل ، ٣٨ ـ ٤٠ .

(١٠٩) مدينة الأحلام ، ص ٩ ، وانظر ص ٩١ من كتاب صالح جودت عن الشاعر .

آه يـا قـاتـل يـا سفـ ـاك حتـى أنت حتى[١١٠]

كما وصف الآخر بالحشرة القذرة وجعله في شناعته نموذجا لأصل الإنسان القرد في نظرية داروين :

رجـلا أرى بالله أم حشـرة سبحـان مـن بعباده حشره
يـا فخـر درويـن ومذهبه وخلاصـة النظريـة القـذرة
أرأيـت قردا فـي الحديقة قـد فلتـه أنثـاه علـى شجـرة
عبـد الحميد إعلـم فأنت كـذا مـا قـال داروين وما ذكـره
يـا عبقـريـا فـي شناعتـه ولدتـك أمك وهي معتذرة[١١١]

واعتبر ذلك محنه وأعلن كفره بالصداقة والأصدقاء :

هي محنة وزمـان ضـيق وتمخضت عن لا صديـق[١١٢]

ثم خرج من مصر غضبان أسفا ،بل حزينا مكتئبا ، مكبا على وجه، مستغرقا في محنته حتى صدمته سيارة فعاد إلى مصر منكسر النفس والساق:

خرجت من البلاد أجر همي وعدت إلى البلاد أجر ساقي[١١٣]

((تركت مصر مريضا حزينا كئيبا ، مريضا بجسدي وروحي ، أما جسدي فهو حطام ، ولي عامان أعيش بأعصابي ، وكلما أنت أجلدها ، وكلما تكبرت أمحو كبرياءها بالسياط ، بل لم تكن تعلم أن هناك أعداء ، فلما علمت لم تستطع الصبر))[١١٤] .

---

(١١٠) ديوانه / ١٠٣ / هجو شاعر .
(١١١) ديوانه / ١٦٩ / هجاء طفيلي .
(١١٢) ديوانه / ١٦٩ / الطائر الجريح .
(١١٣) ديوانه / ٢١١ / .
(١١٤) محمود الشرقاوي ، ناجي الشاعر والانسان ص ٢٠ .

تلك هي محنة الشاعر أو بالأحرى محنة طبعه العصبي الذي يتلقى النقد وابلا من المنغصات ويتعامل مع النقاد بأعصاب عارية. وأما الكلمة التي أقامت قيامته فما أدراك ما هيه ؟ : ((ونحن نكذب شاعرنا الطبيب إن زعمنا أنه نابغة ، بل ونحن إن زعمنا أنه عظيم الحظ من الامتياز ، لم يكد يثبت لنا ، أو يصبر على نقدنا ، وإنما يدركه الإعياء قبل أن يدركنا ، ويفر عنه الجمال قبل أن يفر عنا الصبر على الدرس و النقد والتحليل... هو شاعر هين لين ، رقيق حلو الصوت ، عذب النفس ، خفيف الروح، قوي الجناح ولكن إلى حد ، شاعر هين لين ، وشعره أشبه بموسيقى الغرفة، إنها أشعار حسنة ، ولكنها أشعار صالونات ، لا تتحمل أن تخرج إلى الخلاء فيأخذها البرد من جوانبها))[١١٥] . هذا ما قاله طه حسين ، بينما قال العقاد: ((صاحب هذه المجموعة من أولئك الذين يفهمون أن الرقة ترادف البكاء ، وأن الشاعر ينظم ليبكي ويشكو ، وأن العاشق يحب ليبكي ويشكو فإذا هجره الحبيب بكى ، وإذا زاره لم يجز أن يكف عن البكاء وإذا تناجى مع حبيبته قال لها : هاتي حديث السقم و الوصب ، إلى غير ذلك من الأغراض المريضة التي لا نزال نحاربها منذ عشرين سنة في الشعر والنثر والغناء ، ولو كان صاحب وراء الغمام أكثر أدبا في الاعتراف بالفضل لأعرضنا عنه وتجاوزنا له كما نتجاوز لغيره ، ولكنه يحتاج لدرس كهذا ، وقد ينفعه إذا كان فيه منفع))[١١٦] .

---

(١١٥) جريدة الوادي ١٩٣٤ ، وانظر حديث الأربعاء .

(١١٦) جريدة الجهاد ١٢ / ٦ / ١٩٣٤ م .

تهمته إذن هي ((الضعف والبكاء والتصنع المريض)) ، وكان أحرى لكي يبرئ نفسه أن ينفي هذه التهمة أو ينكرها ، ولكنه اندفع يبررها ويؤكدها كما ورد في رده على طه حسين : ((سيدي لا أتمنى لك ليلة كهذه ، ولو أنك إذ ذاك ستنصفني وتفهمني ستسأم وتفكر ، وسترى رجليك تجرانك إلى حيث لا تدري ... عفوا إذا بدت مني حدة في القول ، فقد أخرجت ديواني ليكون طاقة زهر للأحباب ، أو نسمة منعشة فلا الطاقة راقتكم ، ولا النسمة أعجبتكم ، فلا عذر إذا سئمت ففكرت ، وفكرت حتى سئمت ، وأصابني الكلال فجرتني قدماي إلى هذا المكان لأكتب إليك ، مؤكدا احترامي الكبير ، ومقدما تحية طبيب كان يعد نفسه ضيفا على أهل الأدب منكم ، فأسأتم قراه ... أنت تراني قوي الجناح إلى حد ، وتراني رقيقا، وترى لي موسيقى تسميها موسيقى الغرفة ، ويلوح لي من تفضيلك على محمود طه انك لست ترضى عن تلك الرقة ، ولا تعجب بهذه الموسيقى ، بل أنت من أنصار الشاعر الذي تراه مهيأ ليكون جبارا ، أنت من أنصار الأدب العنيف ، النتشوي الهتلري ، من أنصار النسر الذي يحط على الشجر الباسق ، ويبسط جناحيه بسطة عقادية . الواقع أن هذا العصر في حاجة إلى مثل ما تحب ، أما نحن فأدبنا مائع رخو ، أدب نواح ودموع وضعف ، وقد كنت أحب أن أعرف رأيك يا مولاي في ليالي الفريد دي موسييه ، وروائع لامارتين كالبحيرة والوادي ما رأيك في هذا الضعف الشائن من شاعرين لم يخلد لهما إلا تلك الدموع الذاتية ؟ ومع ذلك قل لي منصفا وليقل العقاد : أي نوع من أنواع الأدب أحب إلى النفوس ، إن الموتى سيقومون من قبورهم ، وستنبض كل صحيفة في كتبهم بالحياة صارخة: مآسينا خلدت ، ودموعنا هي التي عاشت ، وأنت لو سألت نفسك عن أحب الكتب إليك قلت : ((الأيام)) لماذا؟ لأنها قصيدتك الكبرى ، فيها دموعك وفيها ضعفك كذلك ، وهي أقوى ما كتبت ، ولو سألت العقاد أي شعر تحب ؟ لقال لـــــك : ((هاردي)) ، وما

شعر هاردي غير دموع وضعف من الضعف الذي تعيرنا به ، أكاد أقسم أن هذا هو اعتقادكم بينكم وبين أنفسكم ، أما النقد فشيء آخر ، النقد أن تتناولوا هراوة ، وان يصيح الحجاج من ورائكم :هاكم رءوسا أينعت))[١١٧] .

الشاعر إذن لم يبرئ نفسه من تهمة الضعف ، ولكنه بررها ، وذهب غضبان آسفا ، فهجر الشعر ، واتجه من الأدب المنظوم إلى نقيضه المنثور ، فكتب القصة والمسرحية وأنصرف إلى الدراسة النفسية وحكم على نفسه ((بالنفي الحر)) ، ووصف هذا النقد ((بالمحنة)) وناقديه ((بالقتلة)) مع أنهما لم يجنيا عليه ، وكل جريمتهما أن لهما فيه رأيا لا حرج إن صدعاه به ، وإنما الحرج في طبعه العصبي شديد التأثر ، والتأذي ، سريع التحول والتبدل ، وهو ما فطن إليه طه حسين حين استدرك يسترضيه ويراود قريحته : ((لم أحزن حين رأيت الدكتور ناجي يعلن زهده في الشعر ، لأني قدرت أن الدكنور ناجي إن كان شاعرا حقا فسيعود إلى الشعر راضيا ، أو كارها سواء ألححت عليه في النقد ، أو رفقت به ، وإن لم يكن شاعرا فليس على الشعر من بأس في أن ينصرف عنه أو يزهد فيه ، أنا منتظر أن يعود الدكتور ناجي إلى جنة الشعر ، فإني أرى فيه استعدادا لا بأس به ، وأظنه أن عنى بشعره ، واستكمل أدوات الفن خليقا أن يبلغ منه شيئا حسنا . أرأيت أنى أحسن ظنا منك بالأدب والأدباء ، وأجمل منك رأيا في الثقافة والمثقفين ؟ أرى أدباءنا رجالا يستحقون النقد ، وتراهم أنت أطفالا يستحقون المداعبة ، هون عليك ، فأما الزبد فيذهب جفاء ، وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض))[١١٨] .

---

(١١٧) ديوانه /٧ / ليالي القاهرة .

(١١٨) جريدة الوادي ١٩ / ٩ / ١٩٩٣ م .

فإذا تأملنا التقنيات الأسلوبية التي صورت هذه المحنة ألفيناها مشبعة بالانفعالية والتطرف والولع بالإطلاقات ، فحين غوضب أحبط فسخط وافتقد الثقة في نفسه بل في الصداقة ، والأصدقاء وجاء أسلوبه مشبعا بألفاظ مطلقة: ((السأم والإرهاق والكلال والسفك والموت والمحنة والمأساة والوداع والضيق والقتام وهتلر والحجاج)) ، وهي معادلات فنية لنقده واستثارته ومغاضبته ، فالشعر بالنسبة له ضرورة حياتيه كالماء، والهواء ، والبلسم الذي يداوي جراح نفسه كما يقول[١١٩] إنه رئته بل روحه التي بها يحيا ، فأي امتهان له إنما هو جناية على نفسه وإزهاق لروحه ، كما أن أي تقدير يبعث فيه الحياة فتعود إليه نفسه راضية مرضية ويعبر عن ذلك بألفاظ مطلقة على هذا النحو من هجاس العظمة Delusion الذي يجعل من الشاعر مليكا[١٢٠] ومن الشعر مملكة وعبقرية فهو كما قلنا سريع التأذي والتبدل ، تؤلمه الكلمة وتشفيه ، وتميته النظرة وتحييه ، ويجاوز الحد في تعبيراته ولا يعرف الوسطية في لغته أو أسلوبه ، حتى أن النقد جعله مؤرقا سئما ، وظن أن الملأ يأتمرون به ليقتلوه ، فخرج من مصر خائفا يترقب ، هائما تجره قدماه إلى حيث لا يدري .

وهكذا العصبي في غضبه ورضاه ، ((ألفاظه قوية مطلقة فإذا سر من شيء قال : أنه رائع فاتن ساحر أخاذ ، وإذا كره شيئا قال أنه فظيع))[١٢١] ، حتى أن الوصف بالعبقرية ـ وهو أحد لوازمه الأسلوبية ـ يجري على لسانه صفة لأي إنسان يريد أن يهوي به إلى الدرك الأسفل حتى يخرجه عن

---

(١١٩) ديوانه / ٧ / ليالي القاهرة .

(١٢٠) ديوانه / ٩ / الشعر مملكة وأنت مليكها .

(١٢١) د . سامي الدروبي ، نفسه ص ١٦٦ .

حدود البشرية ، أو يرتفع به إلى سدرة المنتهى من الكمال والتميز فكل شيء يصبح عنده عبقريا تبعا لرضاه وسخطه وحسبما تقتضيه الطلبة العارضة حتى أن صفة العبقرية التي استخدمها قدحا ((يا عبقريا في شناعته)) هي ذاتها التي استخدمها في المدح والتشبيب بل في الرثاء والمجاملات الاجتماعية :

أنت وحي العبقرية ... وجلال الأبدية[١٢٢]
وطيف عبقري في خيالي ... وحيد الذات مختلف الرواء[١٢٣]
نبايع فيه فنا عبقريا ... وعقلا في العقول بلا مثيل
سلالة عبقر وعشير جن ... بعدتم في الحياة عن الشكول[١٢٤]
عبقري الحسن منفرد ... متعال قلق الأضواء ناء[١٢٥]
يالمساء العبقري وما ... أبقى على الأيام في خلدي[١٢٦]
أقمت من عبقري الشعر برهانا ... وقبلها كنت للأخلاق عنوانا[١٢٧]
نشبت فيها عبقرياتها ... منقبا عن كل فن خطير[١٢٨]
كل نبت عبقري أطلعت ... جطت منه طعما للجسد[١٢٩]
ما كنت إلا أمة ذهبت ... في العبقرية أمة الأمم[١٣٠]

---

(١٢٢) ديوانه / ٢٥٧ / في اهداء ديوان وراء الغمام .
(١٢٣) ديوانه / ٧٣ / الباخرة .
(١٢٤) ديوانه / ٢٥٢ / في اليوبيل الفضي للدكتور علي إبراهيم .
(١٢٥) ديوانه / ٧٣ / ظلام .
(١٢٦) ديوانه / ١٥٩ / المساء .
(١٢٧) ديوانه / ٣٠٤ / تكريم عزيز أباظة .
(١٢٨) ديوانه / ١٧٩ / عبد الحميد عبد الحق .
(١٢٩) ديوانه / ٧٢ / ظلام .
(١٣٠) ديوانه / ٨٤ / رثاء شوقي .

وأرى النبـــوغ وقـــد تهاوى نجمـه والعبقريـــة وهـــي فـــي الأبطار[١٣١]
هـــو مصـــرع للعبقرية روعـــت فـــي عرشهـــا والتـــاج والإكليـل[١٣٢]

ومـع أن صفـة العبقريـة لا تكـون إلا مدحـا لمـن يجـاوز الحـد فـي تمـيزه وتفرده ومخالفته الشكول البشرية لكنه يستخدمها أيضا في سياق الذم والهجـاء وبهذه الثنائية يوظف اللفظ في المعنى ونقيضه ، ومرجع ذلك طبعه العصبـي الذي يجاوز الحد في انفعالاته حتى يخرج إلى حدود التناقض نعني أنه قريـب الرجع ، سريع الرد والاستجابة وهذا هو الفرق بيـن العصبـي والعـاطفي[١٣٣] فبالرغم من اشتراكهما في شدة التأثير وعدم ترجمـة الانفعـال إلـى فعـل ، إلا أنهما يختلفان في درجة الرد والتعقيب والاستجابة للمؤثرات الخارجية ، هـذه المفارقة هي التي تجعل العصبي يتنـاقض والعاطفـــــــــي يتردد ((ذلـك أن اجتماع الانفعالية إلى اللانفعاليـــة يولـد لـدى العصبـي بـالترجيع القريـب النزوة ، ويولد لدى العاطفي بالترجيع البعيد التردد ذلك أن كلا مـن العصبـي والعاطفي تهزه الحوادث ، ولكن الترجيع البعيد لا يلعب دوره مع العصبـي ، فإن العصبي ينتقل من فعـل إلـى فعـل ، دون أن يربـط بيـن أفعالـه ودون أن ينتبه إلى تناقضها وهذه هي النزوة)) .

كان يمكن أن نصف ناجي بالعاطفي كما هو التصنيف الأدبـي للرومانسية لولا أنه يفتقـد سـمة الـترجيع البعيـد وهـي السـمة التـي تتدخـل لـدى العـاطفي ((فيقطع تنفيذ الفعل بعد بدايته فـورا ، فيظل الفعـل فـي مرحلـة النيـة وحـيز الإمكان ، ويظل يتخيل ما للأمر وما عليه ، ويدرك تعارضهما ، ثم ينتقل إلى

---

(١٣١) ديوانه / ١٦٥ / ساعة التذكار .
(١٣٢) ديوانه / ٢٥٤ / رثاء مطران .
(١٣٣) د . سامي الدروبي ، نفسه .

الامتناع وهذا هو التردد))[١٣٤] الذي يجعل العاطفي يلجم انفعاله بخيط من العقلانية ، فيفكر قبل أن يندفع ، فليست الفاء مثلا من تقنياته اللغوية في التعبير عن استجابته وتعقيبه على المؤثر نعني أنه لا يفكر بوجدانه ، ولا تأخذه العزة بالإثم فيقول مثلا في الموقف الذي نحن بصدده ((سلاني فتنكرت ... طواني فطويته)) وهذا بخلاف العصبي الذي ينفعل قبل أن يفكر فإذا ما بدا له أمر آخر تناقض فتراجع ثم ندم بعدئذ وقطع إبهام الندم ، لأنه كما قلنا يفكر بوجدانه لا بعقله ولهذا تتصادم الأشياء في باطنه لتفرز الشيء ونقيضه ((الحرية / العبودية)) ، ((الرضا / السخط)) ، ((الروحانية / الحسية)) ، ((الإرادة / القدرية)) ، ((الاستسلام / الثورة والتمرد)) وهكذا دون أن يلتفت إلى تناقضه أو يحدد موقفه أو يدري ماذا يريد حتى أن سمة الروحانية التي أسرف في ادعائها لا يلبث أن ينكص على عقبيه ويؤكد نقيضها :

((سموت كأنما أمضي إلى رب يناديني
فلا قلبي من الأرض ولا جسدي من الطين))[١٣٥]
((ضل في الأرض الذي ينشد أبناء السماء
أي روحانية تعر صر من طين وماء))[١٣٦]

بل إن كلمة ((الكعبة)) بتداعياتها الروحانية وما يلازمها من تعظيم وخشوع ، تصبح معادلا فنيا للدار ــ دار ليلاه ــ التي ترمز إلى الهوى

---

(١٣٤) د . سامي الدروبي ، نفسه .
(١٣٥) ديوانه / ٢٦٣ / صلاة الحب .
(١٣٦) ديوانه / ٣٤٤ / الأطلال .

والعبث والفاكهة المحرمة ، حتى ليكون من موطن الملاحظة أن القصيدة[١٣٧] ذاتها التي استهلها بكلمة الكعبة لا يلبث أن يختمها بكلمة الكأس بما لها من تداعيات حسية ، وما يلازمها من سكر وعربدة ، وسمر ومنادمة إنه التناقض بين الروحية والحسية . بل إنه في القصيدة ذاتها يقرر أن ماضيه في هذه الدار كان سعيدا)) وهي إن كانت رأتنا يضحك النور إلينا من بعيد ، ثم لا يلبث أن يقول : ((فيجيب الدمع والماضي الجريح)) . وهو بالرغم من نشأته المحافظة ونزوعه الروحي يتعلق بالراقصات ، والخاطئات منهن على وجه الخصوص ممن يسمين ((مرتخص الدمى)) ثم يوثنهن ، ((آلهة الهوى)) ويخلع عليهن صفات الله والملائكة والنبيين كما سبق[١٣٨] . وهو بالرغم من لهفته على ((مرتخص الدمى/آلهة الهوى)) ، وتبرمه بالقيود، ولجاجته في طلب الحرية :

أعطنـــي حريتـــي أطلق يدي إننـــي أعطيت ما استبقيت شـيء
آه مـــن قيـــدك أدمى معصمي لـــم أبقيـــه ومـــا أبقـــى علي
ما احتفاظـــي بعهود لم تصنها وإلام الأســـر والدنيا لدي[١٣٩]

إلا انه فقط انفعالي لا فعال فإذا باستجابته لهذه الحرية التي لج في طلبها تأتي سلبية[١٤٠] وإذا به يبدي رفضا مصحوبا بالجدل إذا ما راودته التي هو في بيتها وغلقت الأبواب وقالت هيت لك، ويزعم أن السجن أحب إليه من

---

(١٣٧) ديوانه / ٣٩ / العودة .
(١٣٨) انظر ص ٦٨ .
(١٣٩) ديوانه / ٣٤٣ / الأطلال .
(١٤٠) انظر ص ٤٦ .

التحرر، فيستمرئه ويحن إليه ، ويؤمن به ويراه صنو الحرية، ولا يرضى به بديلا :

((يا سجين الحياة أين الفرار أوصد الليل بابه والنهار
وهب السجن بابه صار حرا لك لا حائل ولا أسوار
وعفى القيد عنك كفا وساقا فإذا الأرض كلها لك دار
أين أين الرحيل والتسيار بعدت شقة وشطر مزار))[١٤١]
وأعجب شيء في الهوى قيدك الذي رضيت به صنوا لإيماني الحر[١٤٢]
فلما قضى الحظ فك الأسا رحن إلى سجنه مطلقا[١٤٣]

وتسمعه يلج بالقدرية، ويتخذها مبررا لبؤسه وتعسه مع أنه في الباطن يقول بالإرادة ((والاختيار ولا يحفل بهذه القدرية)) :

أنا لا أومن بالقيد ولا أحسب المقدور مني نزعك[١٤٤]
..... ولا يحفل الـ أقدار جاءت بكل أمر ضاري[١٤٥]

وتسمعه ساخطا على الدهر لاجا في شكواه مع أنه في الباطن راض مستسلم لا شكوى ولا ضجر :

أيها الشاكي من الدهر استرح كلنا يا أيها الشاكي سواء[١٤٦]
يا دهر لم اشك الكلال ولا ملكت خطوب الدهر ارهاقي[١٤٧]

---

(١٤١) ديوانه / ٦٠ / السراب في السجين .
(١٤٢) ديوانه / ٧٧٦ / رحلة .
(١٤٣) ديوانه / ٢١٠ / صخرة الملتقى .
(١٤٤) ديوانه / ٢٣٥ / اعتذار .
(١٤٥) ديوانه / ١٦٨ / في تكريم زكي مبارك .
(١٤٦) ديوانه / ٦٤ ، تأبين الهراوي .
(١٤٧) ديوانه / ٢١٣ / شكوى الزمن .

تراه مستسلما ((للضنا العادي)) دون ((جماح أو معاندة)) مع أنه في الباطن يؤكد أن الدهر أخذ منه كل شيء ((إلا معاندته وجماحه)) :

هدم الضنا العادي قوى شكيمتي وثنى معاندتي ورد جماحي[١٤٨]
أنت امرؤ ترزخ تحت الضنا لم يبق منك الدهر إلا عنادا[١٤٩]

تراه باخعا نفسه على دهره واصفا إياه ''بالخيانة'' ، مع انه في الباطن يلج في تبرئته نافيا عنه هذه الصفة :

..... كم عاقنا ليل وخان نهار[١٥٠]
والله ما خان الزمان وإنما هانت عليك الذكريات وهنا[١٥١]

تسمعه يعتب على القدر ، ويحمله تبعة تعسه ونكسه وهو في الباطن يقول بغير ذلك :

وما عتبنا على حبيب لكن عتبنا على القضاء[١٥٢]
..... وما عتابي على الأقدار والقسم[١٥٣]

تراه مستسلما للقدر دون اعتراض أو تساؤل وهو في باطنه يتساءل ويعترض :

لما رمى الحب قلبينا إلى قدر له المشيئة لم نسأل لمن ولما؟
يا ساري البرق من عينين يومض لي ماذا تخبىء لي الأقدار خلفهما[١٥٤]

---

(١٤٨) ديوانه / ١١٥ / وداع المريض (مهداة إلى س) .
(١٤٩) ديوانه / ١٥٨ / الحياة .
(١٥٠) ديوانه / ١٤٣ / الميعاد الضائع .
(١٥١) ديوانه / ٣٥٢ / بقية القصة .
(١٥٢) المجهولة / ١٨٦ / أنا والقمر .
(١٥٣) ديوانه / ٢٦٥ / في لبنان .
(١٥٤) ديوانه / ٢٥٩ / عينان .

تراه وقد أخذته العزة يهدد بالخيانة إن لم تصن عهوده وهو في باطنه يستمرئ الخيانة ، ويبدي وفاء لمن خانته ونقضت عهدها :

كم تهتف الأيام : خانت فخن ... ويح حياتي إن تكن أنسها[١٥٥]

ما احتفاظي بعهود لم تصنها ..... [١٥٦]

لا أبالي خنتني ... أم غير البعد يمينك[١٥٧]

فهناك قلب لم يخن ... عهدا ولم يتبدل[١٥٨]

تراه يشكو الصدود والهجران في الوقت الذي يؤكد وصالها ومودتها إياه :

هبنا شكونا بلا انقطاع ... ما حظ شاك بلا سميع[١٥٩]

وكنت إذا ناديت لبيت صرختي ..... [١٦٠]

تراه يشكو إعراضها وإشاحتها عنه بوجهها ((فيستزيدها نظرا)) في الوقت ذاته الذي يعلن مله من ((إدمانها النظر إليه)) :

اصغ لي وانظر ودع كفـ ... ـيك في كفي حينا[١٦١]

أيها اللاذ بالصمت كفى ... وادر وجهك لي وانظر قليلا[١٦٢]

لا تدمني نظرا إلى فو الذي ... جعل الهوى قدرا على كفيك[١٦٣]

---

(١٥٥) ديوانه / ٢٣٣ / رباعيات .

(١٥٦) ديوانه / ٢٤٥ / الأطلال .

(١٥٧) المجهولة / ١٥٨ / استرحام .

(١٥٨) ديوانه / ٢٤٤ / الصورة .

(١٥٩) ديوانه / ٢٩١ / الليالي .

(١٦٠) ديوانه / ١٤١ / في الظلام .

(١٦١) ديوانه / ٣٠٦ / مصافحة الوداع .

(١٦٢) ديوانه / ٣٢٤ / في ظلال الصمت .

(١٦٣) ديوانه / ٢٢١ / قدر .

تراه يعلن سأمه ويلج في الملالة والضجر[١٦٤] مع أنه في باطنه يستمرئ هذا السأم بل يؤمن به ، ويراه صنوا لاستمرار العاطفة ((أنا لا أحب إذا أنا لم أسأم))[١٦٥] .

تراه يبدي ضجرا ويشكو التعب والكلال متبرما بطول الطريق ، باخعا نفسه على أشواكه وصخوره ، زاعما أن القدر هو الذي قذف به إليها :

آه يا قبلة أقدامي إذا شكت الأقدام أشواك الطريق[١٦٦]
علم الله لقد طال الطريق وأنا جئتك كيما أستريح[١٦٧]
طالت مسافته علي كأنها أبد غليظ القلب ليس براحم[١٦٨]
قد طرق الباب فتى متعب طال به السير وكلت خطاه[١٦٩]
خدعت ضلالات الحياة تبيعها والدرب وعر والطريق طويل[١٧٠]
أرباه أنقذني فأنت رميتني بقلب على الأشواك والدم مشاء[١٧١]

الذي يقول هذا بلسانه هو ذاته الذي يستمرئ في باطنه الشوك والصخور، ويمشي عليهما طائعاً مختارا :

من مشى يوما على الورد له فطريقي كان شوكا ومشيته[١٧٢]

---

(١٦٤) انظر ص ٩٩ .
(١٦٥) ديوانه / ٢٧٣ / دار هند .
(١٦٦) ديوانه / ٣٤٣ / الأطلال .
(١٦٧) ديوانه / ٤٠ / العودة .
(١٦٨) ديوانه / ١٠٦ / الفراق .
(١٦٩) ديوانه / ١٤١ / أنوار .
(١٧٠) ديوانه /٣٥٣ / بقية القصة .
(١٧١) ديوانه / ٥٤ / إلى أمينه .
(١٧٢) ديوانه / ٤٣ / كبرياء .

((ولـــو طـــريـــق حبـــه علـــى القـتـــاد والقـلـــبـــا
وقـيـــل للـقـلـب هنـــا الـــ مـــوت فـــعد تسلم أبي))[١٧٣]

تراه جبارا عصيا وكأن ليس للهوى نهي عليه ولا أمر ، مع أنه في باطنه يبدي طاعة عمياء ويلج في الرضوخ والتبعية :

وقـــد كان قدري قيد حبك كلـــه أنا المرء لم اخضع لنهى ولا أمر[١٧٤]
أمـــرتنـــا فعصينـــا أمرهـــا وأبـينـــا الذل أن يغشـــى الجباه[١٧٥]
فمرينـــا إنعـــام من غير أمـر نحـــن أسراك مـــا بأسراك حر[١٧٦]

وبينما الإنسان السوي ينشد الراحة ويتجنب الألم ، ويعتد بالقوة والرجولة ويأبى الذل أن يغشى الجبين إذا بالشاعر يستمرئ التعذيب والألم ويبترد باللظى ، ويرى السعادة في أتم شقاء كما سبق[١٧٧] .

وهكذا تبدو الثنائية سمة لصيقة بلغته ، متشابكة مع نسيجه الوجداني ، داخلة في لحمته وسداه ، معبرة عن قوامه الفني ، ليس فقط على مستوى مقطع أو قصيدة ولكن على مستوى شعره كله .

---

(١٧٣) ديوانه / ٦٧ / الطائر الجريح .
(١٧٤) ديوانه / ١٧٦ / رحلة .
(١٧٥) ديوانه / ٣٤٣ / الأطلال .
(١٧٦) ديوانه / / صولة الحسن .
(١٧٧) انظر ص ١٣ .